زاد الغربة

يظل القلق الحادّ يعتور «النفس الانسانية» ويؤرق وجودها بسبب ذلك الاحساس المبهم بالوحشة، والشعور الغامض بالإغتراب في هذا العالم، وهو حسٌّ عميق الغور في النفوس لا يسهل الخلاص منه، أو الأنفكاك عنه، لأنه يشكل جانباً مهماً من جوانب الوجدان البشري.

وكان أمراً بديهياً أن ينتقل هذا الاحساس المخيف والحزين الى أبنائه، ويتوارثونه جيلاً عن جيل، مشكلاً واحداً من اكثر مكونات نفوسهم عمقاً، وأشدّ جراحات أرواحهم نزفاً، حتى إن ارواحهم لتحوم هائمة وهي تنزف الألم والحزن في رحلة بحثها المضنية عن عالم أبيها المفقود، ووطنه المنشود... وقد أنهك هذ البحث نفوسهم، وأقضّ مضاجعهم، وأشحب وجودهم، وامتصّ ماء حياتهم دون جدوى، لأن الاحساس بالغربة يلازمهم ولا ينفك عنهم مهما ضج ضجيج حضاراتهم، واحتدمت آمالهم ومطامحهم، وعمرت أرضهم، وأخصبت حقولهم، وارتفعت في الفضاء مداخن معاملهم ومصانعهم، وهو سكين حاد يظل يعمل في الروح تجريحاً وتقطيعاً ما دامت سارحة في التيه، راتعة في صحارى الضياع، قبل الاهتداء الى عالمها، والعودة الى منبعها.

ولأن عالم «آدم عليه السلام» الأول، هو الوجود الحق الذي لا يعتوره الفناء والعدم، ولا يقبل إلاّ خالص الوجود، ومحض الوجوب... ولأن المعصية بسلبيتها وعدميتها هي الأبنة الشرعية للعدم الأكبر، صار لزاماً أن

يغادر «آدم» - وقد عصى - عالمَ البقاء والخلود، ويهبط الى دنيا الزوال والفناء والعدم، لأن شبيه الشئ منجذب اليه كما هو معلوم... وهذا العالم يناصب الانسان العداء، ويغريه بعد حياته، ويزينها له، حتى إذا ما ابحر اليها أطبقت عليه بفكاكها القوية الحادّة، وأمسكت بخناقه، فلا تتركه إلاّ جثة عدميةً هامدةً، لا يقبلها الوجود، ويرفضها البقاء. ولكي يستطيع «آدم عليه السلام» وأبناؤه من بعده، الخلاص من مخاطر هذ الوطن العدمي المخيف، كان لزاماً عليه وعلى أبنائه التشبث بحبال الانقاذ الممدودة اليهم من عالم الوجود الحق، والتمسك بها بقوة وحزم، والصراخ في وجه كل ظلمات دنيا العدم «حسبنا اللهونعم الوكيل» ، أي:

حسبنا واجب الوجود من عدميات الممكنات...

حسبنا الواحد الأحد من شتات الكثرة...

حسبنا مسبّب الأسباب إذا ما استنزفتنا الأسباب...

حسبنا الله سنداً ومعيناً إذا ما تهاوى الاسناد وعزّ الصاحب والمعين...

حسبنا الله ناصراً ومؤيداً إذا ما تخلى عنّا النصراء والمؤيدون...

حسبنا الله أنيساً في وحشتنا، وصاحباً في غربتنا...

وبعد: حسبنا الله الموجود الموجِد خالق الموت والحياة، إذا ما جاءنا الموت وتهددنا العدم...

فالتشبث بالباقي الأزلي الأبدي... بقاء

والتعلق بالوجود الحق... وجود.

والارتباط بالحي الذي لا يموت... حياة.

* * *

والشعور بالأغتراب الفكري والروحي، وحتى الحسيّ، رغم ما يخلفه من آلام وأحزان، الا أنه يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط خلايا الفكر والروح.

فالأبداعات الفكرية والوجدانية ـ في الأعم الأغلب ـ مدينة الى هذا الشعور بالاغتراب عند المبدعين، وإحساسهم بأنهم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة ما يملكون من فكر أو وجدان لم تتهيأ الأوطان والازمان بعد لقبوله، والتواصل معه، إلا أنهم يمضون في أداء رسالتهم على أمل أن يأتي ذلك الزمان الذي يفهم ويقدّر، وصدق رسول الله ﷺ حين قال (بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)، أي ان زماناً سيأتي يغترب فيه حملة الاسلام، وينكرهم عصرهم، وينكرهم قومهم، لأن الاسلام نفسه يعود غريباً لا يرحب به بينهم.

فهذه الرسالة – الشعاع الرابع – «زاد الغرباء»، تحمل العزاء العظيم للمسلمين المغتربين في هذا العصر، وتزجي الأنس للمستوحشين المنعزلين في جزر غربتهم، وتشيع الأمن والاطمئنان في نفوس الخائفين المرعوبين من وحش الفناء والعدم.

و« النورسي » رحمه الله، هذا الانسان الغريب في قومه ووطنه يُملي هذه الرسالة، ويشرح فيها تجربته الذاتية، وخبرته ومعاناته من أنواع كثيرة من الغربة والاغتراب، ويصف فيها الدواء لنفسه، والضماد لجراحات غربته، وهذا الدواء والضماد في هذه الرسالة في متناول كل مغترب من المسلمين يعاني من عذابات غربته، وآلام وحشته، وقلق خوفه ورعبه.

رحم الله « النورسي » عاش غريباً، ومات غريباً، وأخصبت غربته هذه الآثار الفكرية والوجدانية التي يتتلمذ عليها اليوم الآلاف من غرباء هذ العصر من المسلمين...